حوار الذات والآخر في تأويلية "بول ريكور"

د. واضح عبد الحميد *

مقدمة:

لقد شكلت مسألة الغيرية محوراً مهماً في مسار الفلسفة بكل مباحثها "الانطولوجيا" "الابيستيمولوجيا"، و"الاكسيولوجيا" وعلى اختلاف توجهات فلاسفتها من القدامى والمعاصرين، مما جعلها تنظر في طريقة الخطاب مع الآخر بما يشكله من اختلاف مع الذات، وبما أن الواقع أصبح يفرض التعامل مع هذا الآخر المختلف كان لزاما على هذه الذات أن لا تبقى حبيسة ذاتها، بل وجب عليها الانفتاح على العالم ومعرفته، والتعامل مع كل ما من شأنه أن يربط بين هذا وذاك وفي جميع مجالات الحياة. وفي هذا الإطار يعتبر "بول ريكور" من بين الفلاسفة المعاصرين الذين أولوا اهتماما كبيرا في دراساتهم الفلسفية لمسألة الغيرية، حيث طرح فكرة الحوار مع الغير وذلك من خلال فلسفته التأويلية، كما اهتم بمسألة الذات والآخر بشكل خاص والتي تظهر كعنوان لأحد مؤلفاته "الذات عينها كآخر". وبهذا يمكننا أن نطرح التساؤلات التالية: كيف أسس "بول ريكور" لحوار الذات و الآخر رغم وجود هذا الاختلاف؟ وما هي تجليات مفهومي الذات والآخر في فلسفته؟ وفيم تتمثل مسؤولية الفلسفة ودورها في التأسيس لذلك؟.

لقد تعرف "بول ريكور" على مفهوم الذات من خلال تعرضه لدراسة الإنسان وهو "يتأمل تلك الذات الحبيسة داخل سجن العدو الذي وصفه داخل زنزانة السجن أثناء الحرب العالمية الثانية حيث بدأ

يقرأ للآخر ومن ثم يتعرف على لغته، فهو ينمي الإبداع من خلال الحوار المتبادل حيث يقول " لا توجد طريقة للخروج من الذات إلا بالتغرّب في الغير"[1].

هذه الذات التي تعرض لها "ريكور" بسؤاله، وهي نفسها وكأنها الآخر في كل مستوياتها المتعددة"، فنحن نسأل عن الذات بالقدر الذي نهم فيه بالإجابة عن سؤال من؟ وليس عن السؤال ماذا؟ أو لماذا؟ على هذا النحو فإن مقولات القول والقائل، ثم القدرة على الفعل والفاعل، ثم السرد والراوي، وأخيرا مسؤولية الأفعال والذات الحاملة للمسؤولية، تخضع كلها للاستقصاء الفينومينولوجي"[2]. إنها فلسفة ستتميز ببحثها عن المعرفة والصداقة، انطلاقا من تشييدها لرؤية متميزة عن الأنا وعلاقتها بالغير، "فالصداقة هي التي تجعلنا طبيعيين مع الغير"[3]. وهنا يطرح "ريكور" فكرة الغيرية بطريقة متميزة جدا ،إذ سيؤسس لفكرة الأنا والآخر من خلال بحثه عن حقيقة الأنا أو الذات.

ويبدو أن هذه المسألة كان لها أن تطرح من خلال محاولة توسيع دائرة المعرفة والتأثير والتأثر بمختلف العلوم وتعدد التوجهات، إذ طرحت الفلسفة رهانا أرادت من خلاله أنشاء علاقة متكاملة مع بين الذات كباحثة عن المعرفة والآخر كمشارك لها في ذلك، والذي يتمثل في عامل الخطاب كمحرك أساسي لمثل هذه المسائل، حيث يتماشى والتطور الفكري الواسع والمتشعب على مختلف العلوم الأخرى، إذ يتصف بالتوجه الأكثر إنسانية، حاملا للقضايا الأخلاقية التي تعزز من قيمة الإنسان، وفق قيم الحوار المتفتح.

لقد تميز "بول ريكور" بالانفتاح على مثلث الفكر التأملي الفرنسي، والتحليل الألماني و البراغماتي الانجلوساكسوني، وإذا كان له من ميزة أساسية كما يقال فهي أنه فيلسوف الحوار بلا منازع، لقد بنا حواره على احترام الآخر إذ جعله شريكا في تعريف الحقيقة وصنعها وإن لم يشترك في وجهة نظره،" فموقف ريكور هو عدم هدم مكتسبات الصرح الفلسفي الذي استغرقت إشادته ألاف السنين،بل الاستماع إلى الحضارات الأخرى وفتح الباب أمامها لتكشف ما هو مخبأ أو مطمور عندها، لعل فيه إغناء جديد للبشرية "[4]. فلا بد من وعي جديد متفتح على مختلف الخطابات، من اجل فهم شامل لمختلف الآراء والتوجهات، إنه الرهان الذي يقتضي إثبات لحظة "التأمل في الذات المتكلمة بهرمينوطيقا الإنسان المُستطيع"[5]، لقد كان التفاعل في فلسفة "ريكور" واضحا مع مختلف الفلسفات الأخرى التي كانت تمثل أهم التيارات الفكرية في القرن العشرين، إنه التأمل في الحياة وتأويلها.

وهذا ما جعل "بول ريكور" يتجه إلى مفهوم الغيرية كغيره من المفاهيم التي يحاول صياغتها في مقابل مفهوم الذات، ومن ثم العودة إلى الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود" والذي جعل من الذات الحقيقة المثلى في هذا الوجود، وذلك ما أقّره ديكارت بوجود شيء واحد غير قابل للشك، وهي ذاته التي تقوم بعملية التفكير، باعتباره الفعل الذي يبقى متضمنا في الذات. رغم النقد النيتشوي لهذه الذات ومحاولة تحطيم مثل هذه المفاهيم المتعلقة بالتمركز، و"كتشريع لقيم جديدة، يجسدها الإنسان الأسمى" [6]، ومن ثم إثبات الذات وإعادة الحياة من جديد، إلا أنها تبقى قائمة مع "ريكور" وعليها أن تتعامل مع الآخر دون

إلغاءه بل استحضاره والإنصات إليه كما يقول "ريكور" حيث نجده يعترض على هذا الكوجيتو وهو اعتراض على وجود "الأنا أفكر" بشكل منغلق بعيدا عن وجود الآخر، وهو بذلك لا يرفض الوجود وإنما رفضه كان لهذا الشكل الوجودي الذي لا يعترف بوجود ذات فاعلة تشترك مع الآخر في هذا العالم.

فالأمر إذن يفضي إلى وجود علاقة متكاملة بين الذات والآخر، فهي تحاول تحقيق ذاتها استنادا بالآخر كما يحاول هذا الآخر إلتماس العون والخدمة من هذه الذات، ومن ثم يتسنى لها الانفتاح على العالم وبعث الحوار مع كل ما هو مختلف عن هذه الذات.

إن الفلسفة الريكورية ليست تلك الفلسفة التي تتصف بالتأويل أو الهرمينوطيقا فحسب، وإنما هي فلسفة متفتحة على جميع فروع المعرفة العلمية، حيث لم يترك بول ريكور " فنا من الفنون أو علما من العلوم أو مذهبا فلسفيا أو جنسا أدبيا إلا وعقد معه إرادات في المعرفة والنقد وسجلا مثمرا مع أنداده من الفلاسفة المعاصرين، وتدل على ذلك قراءاته النوعية والمختلفة وانفتاحه على التحليل النفسي والبنيوية والسيميولوجيا والفلسفة التحليلية وغيرها من الأشكال الفكرية حيث عقد مع ممثليها حوارا فكريا قصد سبر أغوار التجربة الإنسانية أو تطوير منهجه الفلسفي على سبيل التمحيص والإضافة والإثراء "[7]. مما يجعلها فلسفة حوارية من خلال التنوع المعرفي الذي أراده "بول ريكور" أن يكون سبيلا لها في ذلك، "فإلى جانب فائدة الفلسفة في الكشف عن إمكانيات غير معروفة فإن لها قيمة – وربما كانت هذه هي قيمتها الرئيسية – مستمدة من عظمة الموضوعات

التي تتأمل فيها...إن حياة الرجل المقود بالغرائز حياة حبيسة داخل دائرة من الاهتمامات الخاصة الشخصية وقد تشمل الأسرة والأصدقاء، لكن العالم الخارجي لا يلتفت إليه من حيث يمكن أن يساعد أو يعيق ما يدخل في نطاق الرغبات الغريزية، وفي مثل هذه الحياة شيء محمود ومحدود لو قورن بما عليه الحياة الفلسفية من هدوء وحرية "[8].

لقد عبر "ريكور" عن فلسفته هذه حيث نجده يقول: " كنت أستند بثقلي إلى المنهج التأملي الذي أتى به "هوسرل" والثنائي الوجودي: "ياسبرز" و"مارسيل"، وربما أطلقت الآن على هذا النوع من الوصف الأول الظاهراتية الوجودية، برغم أنني لم أجرؤ في حينها على تسميتها بالظاهراتية، لأنني لم ارغب أن تحتمي محاولتي بشرعية "هوسرل"، الذيكنت أترجمه إلى الفرنسية، برغم ذلك كانت ظاهراتية، بمعنى أنها حاولت أن تستخلص من التجربة المعيشة، المعاني والبنى الجوهرية للهدف والمشروع والدافع والإرادة "[9].

ففلسفة "ريكور" هي فلسفة مبنية على أسس ومرتكزات أرادها لها ريكور كفلسفة مؤسسة، متضمنة لكل مجالات الحياة الإنسانية بما تحمله من قيم الحرية والديموقراطية، والعدالة والأخلاق، والمنفذ الذي وجده ريكور هو الارتحال نحو قارات معرفية تزيد الفيلسوف عدّة مفهومية وقوة فكرية ومراجعة نقدية على ذاته وأدواته، من هنا كان اطلاعه المتبحر والنقدي على المناهج التي أتاحت له الاغتراف من مجاريها "[10]. مثل: سيميولوجيا "غريماس" التي حاولت بحث مسألة المعنى وما ينتج من دلالة بعيدا عن الذات المبدعة، وهذا ما جعل

مقاربة "ريكور" السيميوطيقية تتجاوز التفسير الداخلي لتتجه نحو الفهم والتأويل الخارجي، وربط الذات بالنص.

إضافة إلى التحليل النفسي عند "فرويد"، حيث يرى "ريكور" بأن الخطاب الفرويدي يزاوج بين لغتين لغة الطاقة (كبت، غريزة)، ولغة التأويل (تأويل الأحلام)، حيث يتكون الصراع الهرمينوطيقي بين الوعي واللاوعي داخل الذات حسب "ريكور"، مما يجعلنا في مرحلة بحث عن الذات الواعية في ظل وجود اللاوعي. وبنيوية "ليفي ستراوس" وهو الذي وصفه "ريكور" بأنه "كانتي بدون ذات متعالية"، من خلال رفضه لمركزية الذات ومحاولة التفتح على الآخر، بل رفضه للفكر الغربي الذي وصف ذاته بالمرجعية الأساسية في كل شيء وإحالة الآخر نحو الهامش.

إن تأويلية "بول ريكور" هي "فينومينولوجيا بامتياز، لكنها إزاحة نقدية للمتعاليات المجردة المؤسسة لمذهب "هوسرل"، فهي تأويلية فينومينولوجية بالمعنى الذي تربط فيه لغة الرمز بفهم الذات. فليست العلاقة انعكاس مباشر للذات في مرآة ذاتها أو التماهي المطلق مع مثلها وعالمها الذاتوي المغلق، وإنما رؤية تتوسط الأشياء والعلامات أو الآثار والرغبات أو الرموز والتخيلات...ويعتبر "ريكور" أن أهمية اللغة التي تؤسس حقيقة الذات لا تكمن فقط في النسق المغلق للعلامات وإنما تقصد شيئا وتفتح عالما "[11].

لقد رفض "ريكور" تقسيم الفلسفة، وفتح الأبواب كلها أمام مختلف التيارات الفكرية متحاورا مع كبار الفلاسفة، لقد ذهب بفلسفته إلى الأمام وبتفكيره على أسس الفينومينولوجيا وكذا التأويلية

الوجودية، ففلسفة "ريكور" هي فلسفة متفتحة على مختلف العلوم الإنسانية، فهو فيلسوفا " مغامرا على حدود الفلسفة ومفضلا الانعطاف غير المباشر للهرمينوطيقا على الانطولوجيا المباشرة لهيدغر "[12]. إنها فلسفة تجعل من كل من يهمه البحث أن يقتحم مختلف الاتجاهات المعرفية كالفينومينولوجيا والهرمينوطيقا والتاريخ والأدب وغيرها، لقد سعى جاهدا إلى تأمل وتمعن كل مناحي الثقافة الإنسانية، لذلك نجد فلسفته لقت رواجا كبيرا في الغرب الفلسفي ثم مؤخرا في العالم العربي بعد ظهور الأعمال المترجمة لفلسفته إلى اللغة العربية، فهي فلسفة تعبر عن الانفتاح الفكري على المستقبل، وتستنكر التمركز على ما هو منغلق ومتجذر، "وبهذا يكون "ريكور" قد امتحن ذاته في مرآة التأويلات المتقابلة التي ما انفك يستقي من منابعها الأطر الفكرية والأشكال المفهومية، ويتجاوزها بصناعة مفاهيمه الخاصة "[13]. فكانت بمثابة المعين الذي بنى من خلاله "ريكور" تأويليته الفلسفية لاسيما فلسفة الذات.

لقد حاول "بول ريكور" أن يقدم مثالا مهما عن "تجسد الفلسفة من خلال حياة الفيلسوف نفسه، فحياة "ريكور" انعكاس تاريخي لمشروعه الفلسفي عبر مراحله ومحطاته المختلفة. ذلك أنه يعتبر نفسه فيلسوفا مسؤولا وبهذا فهو شاهد فلسفي على العصر، إذ يجب استنطاقه ومعرفة الأسس الحجاجية لشهادته وبنائها الانطولوجي والابستيمولوجي ومسوغات اللغة الفلسفية التي يقرأ بها ويكتب وفقها "[14]. وهذا ما كرّسه من خلال فلسفته التأويلية التي قدمت تلك

السياقات المختلفة لعملية التأويل، وعلاقتها بالذات الإنسانية المتبعة لكل خطوات الفكر الغربي المعاصر.

إن طابع التأويل الذي ميز هذه الفلسفة سيعمل على توضيح الفكر من جديد حيث يقول ريكور: " إن التأويل هو عمل الفكر الذي يتكون من فك المعنى المختبئ في المعنى الظاهر، ويقوم على نشر مستويات المعاني المنضوية في المعنى الحرفي. واني إذ أقول هذا، فاني احتفظ بالمرجع المبدئي في التفسير، أي لتأويل المعاني المحتجبة، وهكذا يصبح الرمز والتأويل متصورين متعالقين. إذ ثمة تأويل، هنا حيث يوجد معنى متعدد. ذلك لأن تعددية المعنى تصبح بادية في التأويل "[15].

ولأن هناك وجوبا للنشاط الفلسفي في إيضاح المعاني لمختلف المشكلات المعرفية لا سيما ما يتعلق بجانب العلوم، لأنه قبل اكتشاف العلوم لصحة أو بطلان قضية ما مثلا فلا بد من معرفة معناها ولا يتأتى ذلك من دون نشاط فلسفي، فحتى البحث عن المستقبل ومعطياته مرهون بوعي فلسفي، ما دام العقل هو الأداة الأساسية في هذا المجال، وهذا ما دفع البعض بتسميتها "بملكة العلوم" ، إنها بحق ملكة يحتاجها الجميع. " وما على الفلسفة الآن إلا أن تراجع طبيعتها ومفهومها، وتعريفاتها التقليدية، ومناهجها وأساليب رؤيتها إذا شاءت أن تصبح " حكمة عالمية " كما سماها كانط أو " حكمة خالدة " كما وصفها "ليبنتز" و"ياسبرز" وغيرهم، وهنا لا يقتصر الأمر على تغيير الوصف والتسمية وإنما يتعداه إلى المهام الجديدة التي تلزمها اليوم أكثر من أي يوم مضى بأن تكون عالمية وإنسانية، وأن تتحول – على الأقل في المجالات المختصة بالقيم والغايات الأخلاقية، والمثل والأحلام،

والأهداف المستقبلية التي يمكن الإجماع عليها – إلى حكمة مناضلة تتسلح بأسلحة النقد والمقارنة لكل ما يعطل العقل ويغيب الوعي ويشوه الإنسانية .... كما عليها أخيرا أن تحافظ على حريتها لكي تستطيع الدفاع عن الحرية. إن الفلسفة تعمل على الدوام في دائرة الممكن الذي يبدو أحيانا على صورة المستحيل، وفلسفة المستقبل العالمية والإنسانية هي اخطر تحد يواجهه المشتغلين بها والمنتمين إليها، إنها من قبيل الخطاب الممكن "[16] الذي تبحث عنه الفلسفة دوماً.

خاتمة:

لقد جعلتنا فلسفة "بول ريكور" ننظر إلى الحياة بعين المتأمل المتفحص المستشرف على ما يمكن أن يستند إلى هذه الفلسفة من مهمة بالغة في الإثراء والتنوير اللذين أرادهما لها "بول ريكور"، بحيث تخدم هذا الوجود بكل ما يحمله لها من مسائل متعددة، تخص الذات الإنسانية في وجودها وفي علاقتها بهذا الوجود، وكذا تنويره وباستمرار. فهو يصف ذلك في علاقة منسجمة بين الذات ومشروعها، في شكل سردي يعكس لنا من خلاله تلك الصورة المتميزة التي أرادها "ريكور" لهذه الذات، وفي تعلقها بالآخر، "فالذات لا تنفصل عن آخَرها، في أيّة مرحلة كانت"[17]. وهنا يوضح لنا "ريكور" المبدأ الأخلاقي الذي يجب أن تكون عليه هذه الذات، وأن تتخلى عن مركزيتها وإنكارها للآخر وإقصائه دائما، والذي هو من مبادئ الفلسفة باعتبارها الفكر الذي سيظل دائما مفتوحا على الوجود، وسؤال المستقبل يجعلنا نفهم الواقع ومن ثم تحليله وتفسيره وتأويله، مما يطرح فلسفة بحثية حول الإنسان وعالمه الذي يوجد فيه حتى يتسن له مناقشة المشكلات المعرفية، ومنه

الاسترشاد حول ما يخبؤه الغد، بوعي متفتح ومتفاعل مع الآخر الذي سيشاركنا غدا كما شاركنا في الماضي والحاضر وبأي شكل من الأشكال.

- **جامعة مستغانم**

---

[1] - نابي بوعلي، **بول ريكور والفلسفة**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص 70.

[2] - بول ريكور، **بعد طول تأمل، السيرة الذاتية**، ترجمة فؤاد مليت، مراجعة وتقديم عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط 1، 2006، ص.ص126. 127.

3- Paul Ricœur, La mémoire, L’histoire, L’oubli , Seuil, Paris, 2000, p. 440.

[4] - بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ترجمة جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005، ص 655.

[5]-PaulRicœur **,** ***Parcours de la reconnaissance***, Op.cit,p. 145.

[6] - عبد الرزاق بلعقروز، **نيتشه ومهمّة الفلسفة**، قلب تراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص16.

[7] - محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات**، فصول في الفكر الغربي المعاصر،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص 65.

[8] - عبد الرحمن بدوي، **مدخل جديد إلى الفلسفة**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1975، ص 30.

[9]- بول ريكور، **من الوجودية الى فلسفة اللغة**: الوجود والزمان والسرد، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1999، ص 270.

[10] - محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات**، مرجع سابق، ص66.

[11] - محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات**، مرجع سابق، ص 67.

[12] - نابي بوعلي، **بول ريكور والفلسفة**، مرجع سابق ص74.

[13] - محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات**، مرجع سابق، ص68.

[14] - نابي بوعلي، **بول ريكور والفلسفة**، مرجع سابق ص68.

[15] - بول ريكور، **صراع التأويلات**، ترجمة منذر عياشي، مراجعة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2005، ص44.

[16] - نابي بوعلي، **حوار الفلسفة والعلم**: سؤال الثبات والتحول، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2012، ص34.

[17]- Paul Ricœur, ***Soi même comme un autre*** , éd Seuil, Paris, 1990, p. 30.